آفاق وطموحات

هيفاء البشير

بفرطٍ من الاهتمام، وبامتنانٍ بالغ، تسلمتُ الدعوة من مؤسسة عبد الحميد شومان التي نُجلّ ونحترم أحد أذرع مجموعة البنك العربي العالمية الرائدة التنويرية، حرّاس الثقافة والملتزمين بالمسؤولية الاجتماعية جنبًا إلى جنب مع دورها الذي يُشكّل أحدَ أهمّ الصروح الاقتصادية التي تجاوزت حدودَ المحليّة إلى العالمية.

لقد كنتم من السبّاقينَ لمفهومِ المسؤولية الاجتماعية في بلدنا منذ بواكير نشأتكم، وبما يشكّل صدى جهودكم وأنشطتكم، شاهدًا على ريادتكم، مُساندًا لمجهود الدولة، مُتمّمًا لدور وزارة الثقافة، حيث يطاول عنان السماء، ويُسهم في صياغة المواقف العامة وخلق الرأي الوطني العام.

إنّ استضافتي اليوم ضمن برنامج «ضيف العام» يزيدني شرفًا وتكريمًا، متمنيةً لكم دوامَ الازدهار، راجيةً أن يعينني الله لإكمال مسيرتي التطوّعية بما يرضي ويفيد.

أشعر بالغبطة أنَّ أبرز المؤسسات الوطنية الثقافية تستضيفني كخادمة لهذا الوطن، لتبقى شعلةَ العطاء وقّادة بين الناس.

لقد آمنتُ أنّه ليس في العملِ التطوّعي مستحيل، إذا توفّرت النية والإرادة والنفس الطويل والتخطيط السليم، أمّا المال فيأتي، فأبواب الخير لن تُغلق يومًا في هذه الحياة.

إنّ ذوي المبادئ لا بدّ أن يصلوا لأهدافهم، مهما كان هناك من صعوبات، ومهما استطالت الطريق، آمنتُ بأنّ العملَ عبادةٌ، وكنت أبدًا شديدة الحرص على نظافة وسلامة المسيرة.

ولدت في التاسع والعشرين من نيسان عام 1931 في مدينة نابلس، وكنت الصغرى بين ستة أبناء، يكبرني ثلاثة أشقاء وشقيقتان.

غادرت الطفولةَ مُبكرًا، عندما استيقظت صبيحة أحد أيام عام 1935 على صوت بكاءٍ أدهشني، لأعلم أن والدي قد فارق الحياة. ولم أفهم كابنة الرابعة معنى ذلك، فاصطحبتني والدتي لألقي النظرةَ الأخيرة، وأودّع والدي المُسجى على السرير دون حراك، وأخبرتني أنه ذاهبٌ للقاء ربّه، وساعدني على تجاوزِ ألم الفقدان حرص أمي وشقيقي الأكبر «حفظي» على تعويض غياب الأب، الذي لم يتبقّ في ذهني سوى طيفه وبريق عينيه وبسمته الحانية.

تحالفت الظروف الشخصية والعامة معًا لصقل وعيي كطفلة، شهدتُ إضراب عام 1936، واندلاع الحرب العالمية الثانية، وشاهدت نتاج تواطؤ الكون على وطني وشعبي وتقاطر الغزاة الأجانب. وأنضجَت الظروف الخاصة والعامة وعي أفرادها بجوهر الحياة، ووسم شخصيات أفرادها بالجديّة والمسؤولية؛ لجعل وجودهم فيها مُجديًا.

تلقيت تعليمي الابتدائي والإعدادي في مدارس المدينة، ولتميّزي وتفوّقي حصلت عام 1946 على منحةٍ دراسية لدار المُعلّمات في القدس، غير أنّ التطورات السياسية والأمنية التي شهدتها فلسطين، والقرار البريطاني بإنهاء الانتداب على فلسطين، بعد استكمال جاهزية الحركة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل فوق الجزء الأكبر منها، وقيامه بإغلاق دار المعلمات في القدس قبل اجتياز الطالبات لامتحان المترك، أعادتني وزميلاتي إلى نابلس، وكل فتاة إلى مدينتها قبل أن نحقّق حلمنا بالتخرّج، فتبرّعت إحدى المعلمات في المدينة بمتابعة التعليم مع عددٍ من الطالبات، ما أهّلنا لتقديم امتحان المترك، فحصلت على شهادة الاجتياز للتعليم العالي الفلسطيني بامتياز عام 1948. ثمّ عُيّنت رسميًا مُعلّمة في المدرسة العائشية مطلع عام 1950.

خلال عملي بالتدريس، وجدت في مسرح المدرسة نافذةً تنويرية، فنشطتُ في تحويل النصوص الأدبية إلى نصوصٍ مسرحية تشترك في عرضها المعلّمات والطالبات.

واستقطبت السياسة أيضًا اهتمامي، وأنا أرى تداعيات النكبة على حياة الشعب الفلسطيني، وشجّعني شقيقي «حفظي» على الانتماء لحزب البعث العربي الاشتراكي، فكنت من أوائل النساء اللواتي ينضممن إلى عضوية الحزب.

وكما كان للقدر دورٌ حاسمٌ في تشكيلِ حياة الشعب الفلسطيني، فقد لعب أيضًا دورًا حاسمًا في تشكيل حياتي الشخصية، فإلحاق الضفة الغربية بالضفة الشرقية عام 1950 لتشكّلا معًا المملكة الأردنية الهاشمية، وحّد الضفتين جغرافيًّا وسياسيًّا، وحطّم الفواصل التي أسّس لها اتفاق سايكس-بيكو، وكرّسها الانتداب البريطاني بقراره عام 1923 بفصل شرق الأردن عن فلسطين، وأعاد نسج الروابط الأسرية بين الشعبين على ضفّتي النهر.

شاء القدر أن يتصادف وجود صديق مشترك لحفظي ملحيس وللطبيب الشاب محمد البشير من مدينة السلط، يجمع ثلاثتهم حزبُ البعث العربي الاشتراكي، وكان الطبيب الشاب يبحث عن شريكةٍ لحياته ناضجة ومتعلمة وواعية. فأشار عليه الصديق بـ(هيفاء شقيقة حفظي) فتعرّف علي، ولفته النضج والوعي وقوة الشخصية والاستقلال، وأعجبه تشارك الانتماء إلى حزب البعث، ما يؤسّس للتقارب الفكري بيننا.

تقدّم لخطبتي، ووجدت فيه الرجلَ المناسب، وتزوّجنا عام 1954، وانتقلت للعيشِ معه في مدينة السلط، التي استقبل أهلُها بالودّ والحفاوة والرغبة في التعرّف على مزايا العروس القادمة من خلف النهر، وما بين التأقلم في بيئةٍ جديدةٍ وحنيني إلى نابلس وضيقي من عدم إمكانية استئناف العمل في التعليم -إذ كان القانون آنذاك يحظر عمل النساء المتزوجات- أنجبت ابني البكر مازن عام 1955، وشاء القدر أن حقّق رغبتي بالعودة للتدريس، إذ تصادف شغور موقع معلمة اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية بالسلط، وتطوّعت للعمل ريثما يجدون بديلة. وعندما لم يتمكّنوا، صدر قرار استثنائي عام 1956 بتعييني رسميًّا لتدريس اللغة الإنجليزية لطالبات المرحلة الثانوية في السلط، وكنت أوّل

امرأة متزوجة تنال هذا الحق، وخلال خمسة أعوام أصبحتُ أمًّا لأربعة أطفال ذكور، وقد مكّنني دعم زوجي من مواصلة التدريس.

لم تجرِ الأمور لصالحي، إذ كان وزير التربية والتعليم ضدّ عمل المرأة المتزوجة، فأصدر عام 1962 قرارًا تعسفيًّا بنقلي لمدينة الكرك، مما دفعني لتقديم الاستقالة.

في العام 1966، عيّن زوجي مديرًا إداريًّا لوزارة الصحة، فالتحقت الأسرة به في عمّان، وفي نفس العام، أنجبت توأمًا من الذكور، وأصبحت أُمًا لستة أبناء.

تمّ ابتعاث زوجي للقاهرة للتخصّص في الطبّ الشرعي والسموم بجامعة عين شمس، واستمررت بتحمّل مسؤولياتي في رعاية الأسرة لوحدي طيلة فترة غيابه في مصر.

في العام 1970، عيّن الدكتور محمد البشير وزيرًا للدولة ثم وزيرًا للصحة، وكان خلال عمله بالوزارة قد لاحظ نقصًا كبيرًا في قطاع التمريض الأردني، والاعتماد المُفرط على الممرضات الاجنبيات خصوصًا من الهند وبنغلادش، فقد جعلت العادات والتقاليد وثقافة العيب الأردنيين يمنعون بناتهم من ممارسة مهنة التمريض.

سعى الدكتور محمد من خلال موقعه وزيرًا للصحة إلى تغيير المفاهيم السلبية السائدة، التي تحولُ دونَ عمل الأردنيات في التمريض، ففوائد ذلك لا تقتصر على النواحي المعنوية للمرضى المرتبطة باللغة والعادات، بل تمتدّ للجانب الاقتصادي لجهة توفير تحويلات العاملات الأجنبيات من العُملة الصعبة لبلادهن، ورفع النسبة المتدنية لمشاركة النساء الأردنيات في اليدِ العاملة من جهةٍ أخرى.

هنا أدركت أن عليّ كرياديةٍ وكزوجةٍ لوزير الصحة، مسؤولية المبادرة في صنع التغيير، فابتدأت الاتصال بزوجات الأطباء، والتشاور معهنّ في تأسيس جمعية خيرية لدعم قطاعِ التمريض، وتوافقن على إنشاء «جمعية الأسرّة البيضاء» التي تمّ تسجيلها عام 1970، وتوجّهنا إلى مدارس البنات لتوعيتهنّ بأهمية مهنة التمريض، وبالرسالة الانسانية التي تنطوي عليها لمساعدة المرضى، وبالدور الاقتصادي المهم لإحلال العمالة الأردنية محلّ

العمالة الأجنبية. وقد نجحت حملة التوعية ونظام الحوافز في تشجيع الفتيات الأردنيات على الالتحاق بدراسة التمريض وامتهانه، والاستغناء تدريجيًا عن الممرضات الأجنبيات.

وامتدت خدمات أعضاء الجمعية التطوّعية لدعم السلك التمريضي بالمستشفيات، وقد لاحظَ رئيس الوزراء، دولة وصفي التل، نتائج جهودنا؛ فدعانا إلى الاهتمام أيضًا برعاية المُسنّين الذين لاتتوفّر لهم رعايةٌ أسرية.

وفي العام 1975، تمّ وضع حجر الأساس لإنشاء دار ضيافة للمُسنين، وبدأت الدار باستقبال النزلاء عام 1979.

غافلني القدر على حين غرّة باختطاف رفيق العمر، عندما فاجأتني نشرة الأخبار في التاسع من شباط عام 1977 بنبأ سقوط الطائرة العمودية التي كانت تُقلّ الملكة علياء ووزير الصحة في طريق عودتهم من زيارةٍ لمستشفى الطفيلة، فأحسست باهتزاز الأرض تحتَ قدمي، وبالكاد تمكّنت من لملمةِ أشلاء روحي، وطيّ الحزن الذي سكن قلبي وعقلي برحيل توأم الروح وشريك العمر والسند والأب، تاركًا بعهدتي مسؤولية رعاية ستة أبناء أكبرهم في السنة الجامعية الثانية في كلية الطب، وأصغرهم توأم بعمر عشر سنوات.

دفعتني الخسارة المُبكرة لزوجي الى استجماع طاقتي لتحقيق حلمنا معًا، فنذرت العمر لتربية الأبناء، كما تمنّى والدهم، وإعدادهم لتحمّل مسؤوليات المواطنة الصالحة، وتفرّغت للعمل التطوّعي والخدمة العامة، رغم الضغوطات النفسية والمادية، وقرّرت بالإضافة لذلك استئناف دراستي الجامعية عام 1979، والالتحاق بكلية التمريض بعد انقطاع عن الدراسة لأكثر من ثلاثة عقود، لإكمال رسالة زوجي التنويرية بأهمية رسالة التمريض، وحصلت عام 1983 على شهادة البكالوريوس في حقل التمريض مع مرتبة الشرف من الجامعة الأردنية. وواصلت السعيَ لتنمية معارفي العلمية، فالتحقت بدورة الإدارة الاستراتيجية للمنظمات غير الحكومية في مدينة فيرمونت عام 1988 في أمريكا.

أرّقني كثيرًا إهمال المرضى النفسيين، فعملت مع زملاء وأعضاء جمعية الأسرّة البيضاء على إنشاء الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي، وتولّيت رئاستها عام 1994. وأنشأت عام 2003 دارًا لرعايتهم، وسبعة مشاغل لتأهيلهم مهنيًّا؛ لإعادة دمجهم في المجتمع، واهتممت أيضًا مع زميلاتي بالصحة النفسية لكبار السن، فأنشأت عام 2009 منتدى الروّاد الكبار؛ للاهتمام بالشؤون الثقافية والترفيهية للمتقاعدين من الجنسين، وبات المنتدى من أحدث وأهمّ صروح الثقافة في الأردن.

وتقديرًا لجهودي المتميزة تمّ اختياري لمواقع رسمية، إذ تمّ تعييني عضوًا في مجلس أمانة العاصمة عام 1980 كأوّل امرأة تتبوّأ هذا الموقع، وجُدّدت عضويتي في مجلس أمانة عمّان الكبرى لدوراتٍ متتالية حتى العام 1994، كما عيّنت عضوًا في المجلس الوطني الاستشاري عام 1982 الذي تمّ إنشاؤه لتعويض غياب مجلس النواب، وبقيت حتى عام 1984 عند عودة الحياة البرلمانية، وتمّ اختياري أيضًا عام 1998 لعضوية مجلس أمناء جامعة آل البيت.

على صعيد العمل النسوي، ساهمت في تأسيس الاتحاد النسائي الأردني العام، وفزتُ بانتخابات رئاسته في أوّل دورةٍ عام 1983، وأعيد انتخابي عدّة مرات لرئاسته حتى عام 1990. ومثّلت الاتحادَ في المحافل العربية والإقليمية والدولية، وقد ترأّست الوفدين الرسمي والشعبي لمؤتمر نهاية عقد المرأة في نيروبي عام 1985، وشاركت في مؤتمرات الأمم المتحدة الدولية للمرأة في برلين وكوبنهاجن ونيروبي وبكين في عام 1975، 1980، 1985، 1995 على التوالي، وشاركت في عضوية المكتب التنفيذي لاتحاد الجمعيات الخيرية لمحافظة البلقاء خلال الفترة 1994-1996، وأيضًا في عضوية لجنة التنسيق للمنظمات غير الحكومية المنبثقة عن اللجنة الوطنية لشؤون المرأة.

وإلى جانب نشاطاتي المتنوّعة، اهتممت بأدب الأطفال، فألّفت مجموعتين لقصص الأطفال بعنوان: «الفرح والسعد» وتمّ منحي على المجموعة الأولى جائزة الملكة نور

للقصة القصيرة لأدب الأطفال عام 1997، وحصلت على عضوية الهيئة الإدارية لاتحاد الكتّاب والأدباء الأردنيين للفترة 1995-1997، والمجموعة الثانية أصدرتها عام 2004، وألحقتها بمجموعةٍ قصصية لليافعين بعنوان «أنا وسما» عام 2015، ولخّصت مسيرة حياتي الحافلة بالعطاء في كتاب بعنوان «محطات في رحلتي مع الحياة» صدر عام 2010. وعرفانًا بدوري المميز، والممتد على مدى أكثر من سبعة عقود متواصلة في خدمة المجتمع والوطن العربي، حصلت على عديدٍ من الجوائز والأوسمة، فتمّ منحي وسام الاستقلال من جلالة الملك الحسين عام 1975، ومُنحت جائزة أديلييدر ستوري عام 1977 من المركز الثقافي في روما؛ تقديرًا لدوري في العمل الاجتماعي، وجائزة الملكة نور لرائدات العمل النسائي عام 1995، وجائزة الأسرة المثالية في العالم العربي عام 2006 من سموّ الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، ووسام العطاء المميز من جلالة الملك عبد الله الثاني في ذكرى عيد الاستقلال عام 2007، وشهادة ودرع للمشاركة في الخدمات الصحية التطوّعية من منظمة الصحة العالمية؛ بمناسبة مرور 25 عامًا على افتتاح مكتب الأردن عام 2010، وجائزة العمل التطوّعي لرعاية كبار السن عام 2015 من سمو الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

وانضممت إلى ائتلاف مؤسسات المجتمع المدني الصحي عام 2011، للدفاع عن حقوق المريض، وترأسته، ثم انضممت إلى المجلس الصحي العالي عام 2017 لأكون مندوبةً عن الائتلاف الصحي، وتمّ إطلاق الميثاق الوطني لرعاية المريض.

أيها الحضور الكريم، تفصيلات الحياة مؤلمة وموجعة، لكن لا بدّ من القول إن الحياة بنتائجها وليس بتفصيلاتها، لقد أنعم اللهُ عليَّ بأن سخّر لي من الأهلِ أمًا قادرةً رسّخت لديّ من القيم ما ساعدني في إدارة حياتي، وتنشئة أبنائي، والسير في الطريق إلى سواء السبيل، والرضا بما قسمَ الله، كما سخّر لي زوجًا أتاحَ لي بيئةً مساعدة للإنجاز وبعدًا ذاتيًّا في تربية الأبناء والوصول بهم إلى العلم والسلوك الخيّر.

أكرمني اللهُ بستّة أبناء: مازن يحمل شهادة اختصاص في طبّ الأسرة من بريطانيا، وعوني يحمل شهادة اختصاص في الجراحة العامة، وعبد الرحمن يحمل شهادتي اختصاص في النسائية والتوليد والإخصاب وطب الأجنّة من بريطانيا، وبلال يحمل شهادة دكتوراه في هندسة البيئة من كندا، وصلاح الدين حاصل على شهادة دكتوراه في القانون الدولي من كندا، وعامر حاصل على بكالوريوس هندسة معمارية من الجامعة الأردنية.

ولي من الأحفاد «20» حفيدًا، اثنا عشر منهم أنهوا دراساتهم العليا، وخمسة منهم حصلوا على درجة البكالوريوس، وثلاثة منهم ما يزالون على مقاعد الدراسة.

لكن، اختبرني الله جلّت قدرته من جديد، بأن اختارَ ابني الأعزّ «مازن» إلى جواره، وكانت الضربة التي لا قِبَلَ لي بها، فلا حولَ ولا قوّة إلّا بالله.

بعدَ كلّ خسارة تلحق بي، أشعر وكأني فقدت قوّتي وأطرافي، حتى تغلق الحياة بوجهي، وأشعر أنني انتهيت ولا أستطيع إكمال دوري.

لكنَّ عيون الأبناء ووجوههم التي تحدّق بي حين أسقط في بئر أحزاني، تسحبني رويدًا رويدًا من أجل استكمال مسيرتي، فهم سرّ وجودي.

سرتُ على نهج زوجي، تشبّثت بالأرض وبخاصة مزرعة زي إذ كانت عشقه، وأمدّني الله بالقوة، وكلما ضعفتُ عاد نور الله يشعّ في أعماقي فأنهض من جديد، فحقّقت في زي خمس مراحل إعمار، وبدأت أخيرًا المرحلة السادسة النهائية، وها هي اليوم تبدو قطعةً من أراضي الجنة.

أجلس تحت عرش الله حامدةً شاكرة، لكنَّ فقد مازن من جديد، محنةٌ فاقت كلّ ما مضى، وليس لديّ ما أقوله اليوم إلاّ «إنا لله وإنا إليه راجعون»، نحمده على السرّاء والضراء.. وصبرٌ جميل والله المستعان.. أعود إلى كتابِهِ الكريم، لأجد أنّ محبّة الله تصهر الروح، وتعلّمنا الصبر، لنعود إلى كتاب الله وسنّة نبيه ونهجه، مستسلمين للموت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يحيطني هذا المجتمع بمشاركته ومشاعره الطيّبة، أشكر هذا الوطن الطيّب الذي جعلَ الأبوابَ مشرعةً لتتقبّل جهدي ومسيرتي، أرفع وجهي إلى السماء وأدعو اللهَ أن يديم أمنه وعزّته وقيادته.

أما مشروع «رواقنا»، فهو الأخير للمنتدى، خزانة ذاكرتنا الجميلة، وهو مشروع متحفٍ جمالي فني توثيقي، عبارة عن خزانة حافظة لأهم مكوّنات الهوية الشعبية الأردنية من الملابس التي تمكّنا من جمعها من المحافظات الأردنية جميعها.. مشروع رواقنا مُنتج إعلامي وترويجي للسياحة، ووسيلة معرفية للزوّار من طلاب المدارس وكليات المجتمع والجامعات وقطاعات المجتمع المتعددة.. يضمّ الملابس ومتعلّقاتها من الإكسسوارات والحليّ، تقدّم بواسطة تقنيات متطوّرة، وقد قام على تشكيل (رواقنا) نخبةٌ من المُصمّمين ومنظمي المتاحف من المهندسين المتمرّسين الخبراء بهذا المجال، فنحن ندعو الزائر للتوقّف مع الحكاية المشوقة القائلة: وطنك لا يكفي أن تحبّه وحدك، بل اجعل غيرك يحبّه، لذا سينتج المتحف مواد متنوعةً صالحة للبث وإنتاج حلقات إذاعية، ترافقها استعراضات موسيقية وغنائية تشتمل على العادات من أفراح ومناسبات وطنية تبعث البهجة في النفوس.

خلاصة القول:

أقدّس العمل، وأقدّس العلم، وهو ليس مقصورًا على حقبة عمرية معيّنة، وأكبر فخر للإنسان ليس بعدم السقوط بل النهوض مجددًا إذا تعثّر.. تجرّأتُ أن أكون قائدةً، وأدعو المرأة دومًا أن تكون مُنتجةً، وأن يكون دورها فاعلًا من أجل حقوقها ومصالحها.

أيتها المرأة، لا تقولي دوري انتهى بتكوين أسرة، ما زال هناك متّسع في الحياة، وفي العمل، فعليك أن تقهري الخوفَ والتردّد. آمني بنفسك ودورك، وليكن قلبك كبيرًا لتعطي الآخرين، تجرّأي على الريادة حتى تصلي إلى النجاح، أما أنا فأتوكّأ اليومَ على عصاي،

أواصل العطاء لخدمة المجتمع بذات الهمّة والإصرار والعزيمة، لعلّ ذلك يطفئ جراح الروح، ويخفّف الأسى اللامحدود.